داليا خيري بركات، العثمانيون في الكتابات البيزنطية، دراسة عن صورة الآخر، القاهرة: فرست بوك، 2024..... عرض د. حاتم عبد الرحمن الطحاوى.

لعب الأتراك العثمانيون دوراً تاريخياً فريداً فى التاريخ العالمى منذ تواجدوا فى منطقة آسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر الميلادى وحتى إلغاء الخلافة العثمانية فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين.

لقد تحولت قبيلة عثمان من مساعدة الأتراك السلاجقة على بسط نفوذهم السياسى بالأناضول الى كيان كبير أخذ على عاتقه استكمال مهمة الجهاد ضد الامبراطورية البيزنطية. وهى مهمة شاقة لم تكلل بالنجاح النهائى الا فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى بعد نجاح السلطان محمد الثانى (الفاتح) فى فتح مدينة القسطنطينية وتحقيق حلم المسلمين المؤجل منذ الفتوحات الاسلامية الباكرة فى القرنين السابع والثامن الميلاديين.

وعلى الرغم من التنوع الكبير فيما يتعلق بالأبحاث التى تناولت تاريخ الدولة العثمانية ودورها فى التاريخ العالمى الذى استمر لقرون طويلة، فإن دراسة فترة العثمانيين الأوائل تمثل متعة علمية خاصة بفضل النتائج التى ترتبت عليها، وأهمها صعود قوة إسلامية جديدة وانهيار قوة مسيحية قديمة فى العالم القديم. وهو ما تم اعتباره نقطة تحول كبرى تعد نهاية لفترة تاريخية وسيطة تميزت بالخصوبة والثراء التاريخى.

وترجع الأهمية الكبرى لدراسة تاريخ الدولة العثمانية الباكرة فى أنها غيرت من المعادلات السياسية التى كانت موجودة فى أوربا وحوض البحر المتوسط الذى كان قد شهد تنامى ثلاث قوى كبرى مثلت الغرب الأوربى، والشرق البيزنطى، فضلا عن العالم الاسلامى.

وإذ تمكن العثمانيون من إزالة الامبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية من مسرح الأحداث التاريخى، فقد اقتصر الأمر على قوتين فقط هما المسلمون من جهة والغرب الأوربى الكاثوليكى من جهة أخرى، الأمر الذى عد نقطة تحول كبرى فى التاريخ العالمى آذنت ببداية حقبة تاريخية جديدة للقارة الأوربية.

وقبل الحديث عن صورة العثمانيين فى الكتابات البيزنطية يجب التذكير بالفارق الثقافى الضخم بين العالمين آنذاك، العثمانى الوليد، والبيزنطى العريق. فقد تميزت بيزنطة بوجود مدرسة تاريخية قديمة ومستقرة تشكلت عبر قرون بعيدة، على عكس العثمانيين الذين لم يكونوا قد دلفوا بقوة الى عالم الكتابة التاريخية بمعناها الواسع. فقد كانت الدولة فى مراحل توسعها الأول مهتمة بالحرب والسياسة فلم تخلف سوى القليل من الكتابات التى ربما لا تشفى غليل الباحث فى التاريخ العثمانى الباكر.

وأفرز هذا الأمر فى النهاية مفارقة واضحة، إذ أرخت الكتابات والمصادر البيزنطية لنشأة وصعود العثمانيين أكثر مما قامت المصادر العثمانية الباكرة بذلك. وهو الأمر الذى استمر حتى فتح القسطنطينية عام 1453م حيث يجد الباحث ربما عشرات المصادر التاريخية البيزنطية التى تؤرخ لهذا الحدث الجلل فى حينه، بينما لم تؤرخ المصادر العثمانية المعاصرة لهذا الحدث سوى فى سطور وصفحات قليلة للغاية.

ونتج عن ذلك كله أيضا مفارقة صارخة تعارض المقولة الشائعة بأن " التاريخ يكتبه المنتصرون ". إذ أن الطرف البيزنطى المهزوم هو الذى قام بشكل واسع بكتابة كل التفاصيل المتعلقة بسقوط القسطنطينية وليس الطرف العثمانى المنتصر.

لكن ماذا عن صورة العثمانيين فى المصادر البيزنطية ؟!

هذا ما يحاول هذا الكتاب الفريد الاجابة عليه عبر تلمس تلك الصورة فى مختلف الكتابات البيزنطية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. الأمر الذى يعد مجالا جيدا لاستكمال الصورة التاريخية عن العثمانيين الأوائل فى كتابات خصومهم وذلك عبر استخدام منهج يعتمد على الوصف والنقد والتحليل.

يبدأ الكتاب بتمهيد لابد منه عن العلاقات السياسية بين العثمانيين والبيزنطيين حتى فتح القسطنطينية 1453م.

وتناولت المؤلفة فى الفصل الأول التعريف بالكتابات التاريخية البيزنطية التى تناولت صورة العثمانى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. وهى كتابات قام بها مؤرخون رسميين ورجال دين كنسيين أيضا.

بينما عالجت فى الفصل الثانى تناول المصادر البيزنطية لأصل الأتراك ونشأة الدولة العثمانية الباكرة، والتاريخ الداخلى للعثمانيين مرورا بالحرب الأهلية العثمانية التى أعقبت أسر ووفاة السلطان بايزيد يلدرم بعيد موقعة أنقرة عام 1402م. وهى الحرب التى عطلت صعود الدولة الوليدة لعقد كامل، حتى نجاح السلطان محمد الأول (جلبى) فى القبض على مقاليد الدولة لتستمر بعد ذلك فى رحلة صعودها وتعود الى تهديد الامبراطورية البيزنطية من جديد .

وتتوقف المؤلفة فى الفصل الثالث من أجل استكمال رؤية المصادر البيزنطية المعاصرة للاسلام، مركزة على رصد مظاهر التدين عند العثمانيين، ومتوقفة أمام اهتمام البيزنطيين بمتابعة تنامى حركات التصوف ودور الدراويش والتدين الشعبى فى المجتمع العثمانى. كما رصدت أيضا المسائل التى تعلقت بالجدل الدينى بين البيزنطيين والعثمانيين وصدى ذلك الأمر فى الكتابات البيزنطية. ولم تنس أيضا أن تعرج على صورة العثمانيين فى الهاجيوجرافيا البيزنطية.

كما اهتمت المؤلفة فى الفصل الأخير بكيفية معالجة المصادر البيزنطية المعاصرة لصورة العثمانيين عبر تناولها لشخصيات السلاطين والأمراء والوزراء، وصولا حتى صورة المرأة العثمانية، والعادات والتقاليد الاجتماعية فى المجتمع العثمانى.

يتبقى أن نذكر أن هذا الكتاب هو فى الأصل أطروحة حصلت المؤلفة بموجبها على درجة الدكتوراة في الآداب، من قسم التاريخ، تخصص تاريخ العصور الوسطى، بإشراف العالمة الجليلة ماجدة مخلوف، أستاذة اللغة والتاريخ والحضارة التركية بجامعة عين شمس، فلها وافر الشكر وخير الجزاء.

وفى الختام هذا كتاب متميز فى موضوع فريد فى بابه، ويعد مدخلا ساهم بشدة فى تطور صورة التركى / العثمانى فى المصادر التاريخية والأدبية الأوربية فيما بعد. تلك المصادر التى اعتمدت – فيما اعتمدت – على الكتابات البيزنطية الباكرة حول العثمانيين الأوائل، فضلا عن التواجد والتهديد العثمانى اللاحق للدول الأوربية . كما أن هذا الكتاب يفتح آفاقا جديدة للقراءة والبحث العلمى الجاد فى مجال التاريخ والعلاقة بين العالمين الاسلامى والمسيحى أواخر العصر الوسيط